ليلى أبوزيد.. تجربة مغربية بين عالمين

عبدالنبي ذاكر
ناقد مغربي

نَعتتْهـا صحيفـة "Cairo Times" بالمؤلفـة الموهوبـة... دوروثـي باركـر "Dorothy Parker" المغربية. سـليلة أسرة مقاومـة ببلدتها القصيبة قلعـة مقاومة الاسـتعمار الفرنسي، بشـرق مدينة بني مـلال فـي المغـرب. لـم يقـف وراءها لا مؤسسـة ولا حزب ولا جمعية، أوّل كاتبة ومترجمـة وإعلاميـة ورحّالـة مغاربية تُرجمت أعمالها إلـى الإنكليزية (Year of the Elephant - Return to Childhood - The Last Chapter - Life of the Prophet) قبل أن تجدَ طريقها إلى العربية وتكسـر طوق التجاهل والإقصاء، هي التي لم تكن تجرؤ في البداية على توقيع عملها.

دُرِّست إبداعات ليلى الأدبية وسردها الحميمـي فـي الجامعـات والمـدارس الثانويـة الأميركيـة، بـل كُتبـت عنهـا دراسات لمنشورات أكاديمية في الولايات المتحـدة وبريطانيا، قبل أن تهتدي وزارة التعليم المغربية إلى جعل سيرتها الذاتية "رجـوع إلى الطفولة" ضمن مادة دراسـة المؤلفـات للسـنة الثالثـة مـن التعليـم الثانـوي الإعدادي. ولذلـك لم تكن تتوقع يومهـا إلا رأي القراء لأنه لم يكن بالمغرب في ذلـك الوقت ما يمكن أن نسـميه نقدا بالمعنـى العلمي للكلمة، بل مجرد انطباع ورأي ما كان يعرف بمثقفي الأحزاب أو ما يسـمى بـ«النقد الأيديولوجي»، الذي كان ضحيته كاتبـات أخريات كالرائدة خناثة بنونة وعالمة الاجتماع فاطمة المرنيسي.

وأيضاً قبـل أن يهتدي إلـى أعمالها الناشـر الأوروبي الراصد لمـا يترجَم في الولايـات المتحدة من أدب عربي للسـير على منوالـه. ومن المفارقـات الغريبة أن يكون الأميركيون هم من يدل الفرنسـيين أيضـا علـى مـا يجري في مسـتعمراتهم السابقة.

اعتراف الداخل

لم يَسُرَّ ليلى أبوزيد الاعتراف بها في الجامعات الأميركية، أو خارج الوطن، بل سـعت جاهدة لتحقيـق الاعتراف النقدي الداخلـي فـي بلدهـا أولا، وهـذا هو ما تصبـو إليه دائما، وهذا هـو الأمل الذي يشـدُّها إلى الحياة. لم تكـن تتلقّى بعين الرضـى كونهـا دخلـت إلـى الجامعات المغربيـة والعربيـة -ويا للْمفارقَـة!- عبْر شُـعبة الإنكليزيـة، هـي التـي كرسـتْ حياتها للكتابـة بالعربية دون أن يهتدي النقـاد المغاربة إلـى أعمالهـا، ودون أن ينتبـه النقـاد المشـارقة إلـى تجربتهـا الإبداعيـة، لأن المشـرق فـي اعتبارها- لا يبذل مجهودا لاكتشـاف الكتّاب المغاربة. ولذلك فهي تأسـف أن يَمُرّ حضور الكاتب عبر الترجمة لكي يعود إلى بلاده فيُعرَف ويُعتـرف بـه، علما بأنهـا لا تنكر حاجة الكاتب العربي إلـى الترجمة. وهنا يحق لنا أن نتسـاءل مع المتسـائلين في الحقل الثقافي المغربي: لمـاذا انتبه إليها القراء في المغرب عنـد صدورهـا بالعربية ولم ينتبـه إليهـا الأكاديميون؟ ولمـاذا انتبه إليهـا الأكاديميـون الأجانـب بمجـرد صـدور الترجمـة الإنكليزية ولـم ينتبه إليهـا الأكاديميـون المغاربـة والعرب إلا بعدما جاءت التزكية من الولايات المتحدة الأميركية؟

الاعتزاز بالهوية

ليلى أبوزيد شـخصية مغربية حتّى النخاع تعتز بمغربيتهـا أيَّما اعتزاز، لم تغير منهـا إقامتها الطويلة فـي أميركا شـيئا، وبقيت وفيـة لذاكرتهـا الثقافية واللغويـة، رغـم أنهـا تكتـب أحيانـا بالإنكليزية كما فعلت مع سـيرة الرسول. إنها ترفض الانسـلاخ عن الهوية، وأكثر من ذلك تراها تعلن بكل وضوحٍ وجسـارة أن المرأة المغربية أكثر مُحافظة من الرجل. وهو ما أكدته على لسان زهرة بطلة "عام الفيل" التي ليسـت سـوى نموذج ضاجٍّ بالصراحة لنسـاء كثيرات عانين المصير نفسـه: "المـرأة المغربية في نظـري أكثر أصالة ومحافظة من الرجل. إنها حارسـة القيم والتقاليد".

مثقفة عضوية

مَـنْ تعاطى مع ليلى يعرف أنها امرأة قويـة الشـكيمة، صعبة المِراس، شـديدة اللهجـة في الانتقـاد لا تخشـى في ذلك انتقاد ناقد، وهي فـوق كل ذلك لا تتهيَّبُ الخوض في المواضيع السِّجالية الشائكة كفرْض الدارجـة في البرامـج التعليمية وقضايا المـرأة والتمييز وتمدرس الفتاة وسـؤال الهوية والتنـوع الثقافي ونظام الكوطـا أو نظام الحصـص والتهميش والهشاشـة والاختـلالات والتناقضـات والعنف الأسري والسياسـي والفردانية والانتهازية وتزوير الانتخابات وأعطاب السياسـة وانتقـاد «اليسـار المغربـي» وكائنات البرلمان والإسـلام والموديرنيزم والشـطط في اسـتعمال القوة والسلطة والمال والتحولات الشـائهة التي انخرط فيها بعض أطر الحركة الوطنية، وغيرها من الطابوهات الحارقة...

تكتب ليلـى دون أن تمـارس الرقابة الذاتيـة على بوحها الطافـح بالصراحة والوضوح الشـديديْن. تملك حسًّا متوثبا نفّـاذا، خبرت بـه قاع المجتمـع المغربي وهوامشـه، اسـتغورت عالـم النسـاء، لتصـوغ نصوصـا عميقة تدخـل دائرة السـهل الممتنـع، بجماليـة مخصوصة، لا تديـر ظهرها لما هو سوسيوسياسـي، دون الوقوع في لَغَط الوعظيات المباشرة، والكليشـيهات الجاهـزة، والبيانـات الأيديولوجية الفجّة والمجّانية.

كاتبة جريئة

دفعتهـا جرأتهـا المكتومـة أواخـر سـتينات القرن العشـرين إلـى أن تكتب أول مقال لها وهي ما تزال طالبة بجامعة محمد الخامس باسـم مسـتعار "لم تكن عندي الجرأة حتى على توقيعه باسـمي الحقيقـي. وعندما كتبتُ أول رواية تركتُ بلـدة البطلـة دون اسـم، لأنهـا بلدتي"، وسـرعان مـا ألّفت بعد ذلك فـي الرواية والترجمـة والقصـة والسـيرة الذاتيـة وأدب الرحلـة والسـيرة النبوية، بعد أن تلقت تكوينا فـي جامعة محمد الخامس بالرباط في اللغـة الإنكليزية وآدابها، ثم انتقلـت إلى الولايات المتحـدة الأميركية للدراسة بجامعة تكساس في أوستن، كما تلقت تدريبا فـي المعهد العالي للصحافة في سان بول بمينيسوتا. وفي سنة 1992 تركـت الصحافة لتكرّس نفسـها للكتابة الأدبيـة. من أهم أعمالها التي صدرت في عدة طبعات:

"رجوع إلى الطفولة" (سـيرة ذاتية)؛ "عـام الفيـل" (رواية)؛ "الفصـل الأخير" (روايـة)؛ "الغريب، قصص مـن المغرب" (مجموعـة قصصيـة)؛ "المديـر وقصص أخرى من المغـرب" (مجموعة قصصية)؛ "بضـع سـنبلات خُضْـر" (أدب رحلـة)؛ "أمريـكا الوجـه الآخـر" (أدب رحلـة). تَرجَمت من الإنكليزية إلى العربية سـيرة الملـك محمد الخامـس: (محمد الخامس: منـذ اعتلائـه عـرش المغـرب إلـى يوم وفاتـه) والسـيرة الذاتيـة لمالكوم إكس. تُرجمـت أعمالها إلى الإنكليزية والألمانية والهولنديـة والإيطاليـة والإسـبانية والفرنسية والمالطية والأردية.

> دفعتها جرأتها المكتومة أواخر ستينات القرن العشرين إلى أن تكتب أول مقال لها وهي ما تزال طالبة بجامعة محمد الخامس باسم مستعار وفي هذا الخصوص تقول «لم تكن عندي الجرأة حتى على توقيعه باسمي الحقيقي

روائية ما بعد الاستعمار

استطاعت ليلى -التي صُنِّفت أعمالها ضمـن رواية ما بعد الاسـتعمار ونظرية «الكتابـة النسـائية»- أن تختطّ لنفسـها مجـرى ثابتا متميزا فـي خريطة الكتابة بالمغرب بشـاعرية وفنيـة مخصوصتيْن، ولغـة مُحمَّلة بـدلالات ثقافيـة ومعرفية خصيبة. كَتَبت بالعربية -لأن الفكر واللغة بالنسبة إليها لا تنفصم عراهما- رافضة أن تكتب بلغة المستعمر التي هي الفرنسية، علمـا بأنهـا تتحـدث بطلاقـة العربية والإنكليزية والفرنسـية، لكنها تُصرُّ على اسـتخدام اللغة العربية، كي لا تسقط في الاغتـراب داخـل الثقافـة الأجنبية التي اسـتعمرت بلدها. فاسـتعمال الفرنسية يعني لها الانبطاح للمستعمر ولو لم يعد له وجـود "كنتُ أقرأ كتبا باللغة العربية، ولا أقـرأ كتبا بالفرنسـية رغم أنني كنتُ أدرس اللغـة الفرنسـية فـي المدرسـة، كـردّ فعل علـى كونها لغة الاسـتعمار". في روايتها شـبه السـير ذاتية "الفصل الأخير" تشرح اسـتعمالها للفرنسية في الفصـل الختامي، حيـث كانت في إحدى المدارس الخاصـة بالربـاط مجبرة على الدراسـة بالعربية والفرنسية معا، لكنها كانـت تكره القـراءة بالفرنسـية، وتنفر من اسـتخدامها خارج الفصل الدراسي. وهـذا الموقف المبكّـر من لغة المسـتعمِر هو الذي جعلها تعتبر نفسـها محظوظَة بحيـث لـم تصبح واحـدة من كتـاب ما بعد الاسـتعمار المغاربيين الذين ينتجون أدبا وطنيـا بلغة أجنبيـة. ونفورها من الفرنسية وازدراؤها للفرنسيين وتذمّرها من الالتحاق بالمدارس الفرنسية هو الذي يفسر التفاتها إلى لسان شكسبِير وسيلة للاتصـال مع الغرب. كمـا أن للَيلى أكثر من سـبب شـخصي لكره الفرنسية منذ طفولتها، ففرنسـا اعتقلت والدها ونكَّلت به، وفرضت عليها لغتها. ولم تُبْدِ أيّ كره لأيّ لغـة أجنبية أخرى مثـل الإنكليزية- لأنها لم تتسبب لها في أي ضرر شخصي.

وعبّـرت فـي روايتهـا الأولـى "عام الفيل" (1980) -التي أصدرها في آن واحد ناشـران أميركيـان هما مصلحة النشـر فـي كل من جامعـة تكسـاس والجامعة الأميركية في القاهرة- عَنْ حسٍّ نقدي ضارٍ لواقع الهشاشة والفقر والتصدع الأسريً والطلاق التعسـفي، ممهِّدة الطريق أمام مُدوَّنة الأسـرة التي سـتعزِّز مكانة المرأة في المجتمع المغربي ذي العقلية الذكورية. فعرَّت واقع الصراع بين الثقافة التقليدية والموديرنيزم، القيم الإسـلامية والغربية، واستنكرت الصورة التي يكوّنها المجتمع المغربي عن المرأة، داعية إلى التحرر على المستوى القومي والذاتي.

وهي حينمـا كتبت روايتهـا الأولى "عام الفيـل" (1980) كان المجتمع المغربي مـا زال يرزح تحت وطأة مدونة الأسـرة القديمة، حيث كان الطلاق في المغرب أداةً لإخـراج المرأة من بيـت الزوجية؛ فتجد المرأة نفسـها فجأة مطـرودة ومُلقاة في الشـارع؛ وذلـك بكلمـة واحدة ينطقها الزوج في لحظة غضب.

اليوم صـار الوضـع مختلفاً. فقانون الأسرة الجديد جاء ليُعطي المـرأة والأطفـال ضمانات أكثر، سـتجعل الرجـل المغربـي يفكّر طويـلاً قبـل أن يشـهر في وجه زوجته ورقـة الطـلاق، على حدّ قولها.

ولذلك لم تخفِ ليلى ابتهاجها بهـذا التحـول الإيجابي فـي المغربِ المعاصر، فعبـرت عن مشـاعرها قائلةً "إن الأهم هو ما أحسّـه اليوم وأنا أعيـش في ظـل قانون الأسرة الجديد. أحسّ بنوع من الفخر في الواقع. فقد قمـت بدوري ككاتبة علىٰ أكمـل وجـه. لقد سـلّطتُ الضـوء مبكّراً على منطقة مظلمة في الواقع والتشـريع المغربيين. عبر الرواية، جعلت الكل يحس بمأساة المرأة التي تُطلَّق هكذا وتُرمى إلى الشارع. اليوم القانون الجديد جاء ليؤكد أن المغربيـة لـن تعيـش دائما فـي (عام الفيل)؛ وهذا تحول إيجابي".

ظلـت قضـة المـرأة والطـلاق المدمِّر وتكريـس الاختـلاف بـين الجنسـين تشـغل بالهـا ومخيالهـا فـي روايتهـا شـبه السـيرذاتية semi- autobiography "الفصـل الأخيـر" (2000)، حيـث تصدَّت لمعضلة تعليـم المرأة، ولكره النسـاء في واقع الحياة المغربيـة التمييزي، الذي لا تتلقى المرأة فيه تربية جيدة. في المدرسـة أبلت ليلى البلاء الحسـن لأنـه لا يُتوَقَّع أن لهـا دماغـا، فالرجال يـرون أن المرأة خُلقـت دون ذكاء، وليلى ترى أن الحكومة السلطوية الأبوية هي التي خنقت التربية الجيدة وجعلت منهن أميات وجاهلات.

ضحية تجاهل الناشرين العرب

فـي سـيرتها الذاتيـة "رجـوع إلى الطفولة"، التي أشـفقَتْ مـن ردود الفعل تجاههـا، ولا سـيما ردود فعل أسـرتها، فوضعت المخطوط في درج ونسيته حولين كاملـين، تناهض ليلـى اسـتبعاد المرأة واسـتعبادها وحَمْلها على الصمت. ومن الصُّدَف الغريبة أن هذا العمل الذي تُرجم إلـى الإنكليزيـة قبل أن يصـدر بالعربية بسـنوات، لمّا عزمت صاحبته على نشـره بالعربية اتصلت بناشـر لبناني فقال لها "ليتها كانـت مذكرات بريجيـت باردو!"، وذلـك "لأنه يظـن أن القـارئ العربي لن يهتم بسيرة امرأة عربية عادية"، على حد قولها بمرارة وخيبة أمل.

قضية الدارجة

تجـدر الإشـارة إلى أن ليلـى أبوزيد كانـت مـن الأوائـل الذين تجـرؤوا على الكتابـة بالدارجة إلى جـوار الفصحى، مقتديةً في ذلك بـالأدب الزنجي الأميركي الـذي قرأته بعمق كبير، معتبرةٍ أن اللّكنة لا تضُـرُّ بقيمـة العمـل إن وُظفـت بقدر محدود، لا يتجاوز مقدار الملح في الطعام، أو حين تصير العامية أبلغ من الفصحى. لكـن الزوبعـة التـي أُثيرت فـي المغرب حول اسـتعمال اللغة العاميـة بدل اللغة الفصحى لمبررات واهية كاستفحال الأمية واسـتصعاب الفصحى وضـرورة القطع مع التـراث للبدء من الصِّفـر، لم تتركها فـي الحيـاد، بـل انخرطت فـي التعبير بشراسة وبكثير من الحكمة والرصانة عن رأيهـا الجريء مواجِهَـة بذلك رأي بعض «الحداثيين» الفرنكفونيين كالمفكر عبدالله العـروي والفاعـل الجمعـوي نورالدين عيـوش عضو المجلـس الأعلـى للتربية والتكويـن والبحث العلمـي (في برنامج «مباشرة معكم»، أذيع على القناة المغربية 2)، اللذيْن يمثـلان -في تصورها- فريقيْن ذيْليْن لفرنسا "يتفقان على الاستراتيجية ويختلفـان علـى التكتيك". فـالأوّل يريد إبعـاد الفصحى من المدارس دفعة واحدة وأن يكون التعليـم بالعامية والآخر يريد الإبقاء علـى الفصحى في المـدارس «مع تغييـر قواعدهـا بإلغـاء المثنـى وجمع المؤنث السـالم وجـزم أواخـر الكلمات. بحيث تصبـح الفصحى عامية في نهاية المطاف.

> الكاتبة تبدو الأشد تمسكا برصد الواقع في كتابتها بلغة سهلة، متحللة من التعقيد ومنتمية إلى خَطِّية السرد الكلاسي شأنها شأن أعمدة السرد الروائي والقصصي بالمغرب

وقـد بدا لليلـى أبوزيـد أن التيارين لا يختلفـان على ضـرب اللغـة العربية، ولكنهما يختلفان في طعنها تحت الحزام أو فوقه، لا لضرورة سوسـيولوجية، بل إمعانا في "تركيـع المجتمع المغربي عبر اللغة والثقافـة"، ومحاربة اللغة العربية باللغـة الفرنسـية -التـي أصبحـت في مغرب اليوم شـيئا مـن الماضي- لفرض "هيمنـة فرنسـا الثقافية علـى المغرب"، وإقصـاء اللغـة العربيـة من المـدارس، وبالتالـي "محاربـة العربيـة بالعاميـة وليس بالفرنسية والمستهدف في المغرب الآن هو الإسلام وليس الثقافة".

وبلهجـة قاسـية لكنهـا متفحِّصـة وثاقبـة تنتقد الرجلين بمثال تشـريحي مُضـاد، منبِّهة إلى أنه "فـي الوقت الذي يتعاون فيه العلمانيون والتلموديون في إسـرائيل على الربط مع التراث بإخراج لغة نصف ميتة من تحت الأنقاض وإجلاء ما ران عليها من غبار آلاف السـنين، نجد العلمانيين عندنـا يتعاونون على ضرب اللغة العربية من فوقها ومن تحتها، وهي اللغة الحية التـي قامت بها إحدى أعظم الحضارات في تاريخ الإنسانية.

وفي الوقت الذي نجد فيه مؤسسـات الإعلان والإعلام في الدول المتقدمة ترتفع بالناس بتقديم أحسـن مـا عندهم بأرقى مستويات لغاتهم نجدها عندنا تنزل إلى رطانـة الشـوارع وترتد بهم إلـى الأمية التي تعد العامية بيئتها الطبيعية، ويعدّ تحويل هذه الأخيرة إلى حروف على ورق إخراجـا لها من بيئتها كإخراج السـمكة من الماء، حكما عليها بالموت".

الواقعي ضِد الخرافي

الكاتبـة تبدو الأشـد تمسـكا برصد الواقع فـي كتابتها بلغة سـهلة، متحللة من التعقيـد ومنتمية إلى خَطية السـرد الكلاسـي شـأنها شـأن أعمـدة السـرد الروائـي والقصصي بالمغرب كعبدالكريم غلاب، وتنتقد بشِـدَّة الظاهرة التي غزت العالـم العربـي بعـد حصـول غابريال غارسـيا ماركيـز صاحب "مائـة عام من العزلة" علـى جائزة نوبل بكتابته الأقرب إلى الخرافة والتخييل السحري والابتعاد عن الواقـع والحقيقة. وهـي بذلك تنتقد الكُتَّاب العرب الذين لجأوا إلى السريالية والخرافـة واللاواقـع واللامعقول تقليدا لماركيز، معتقدين أنها المسـلك نحو نوبل، والواقع أن ماركيز نفسـه اعترف أنه تأثر بألـف ليلة وليلة. من هنا تتسـاءل "ماذا يمكـن أن نكتـب بعد ألف ليلـة وليلة من خيال ومن لامعقول؟!" (من شـهادتها في برنامج روافد).

إنهـا في سـجالاتها النارية لا تكتفي بالدعوة إلى كتابـة الواقع؛ لأن ما يهمها أساسـا هـو الكتابة عن الواقـع الحالي المعيـش تحديـدا، أمَـا وقـد وجـدت أن الحاضر يعكس الماضي، فاستقت مادتها ونُسـغَها مـن رحـمِ المجتمـع المغربـي. لذلـك لا تجدها متحمِّسـة كثيـرا للكُتّاب العرب المحدثين الـذي لجأوا إلى التاريخ لكتابـة رواية بعيدا عـن واقعهم الزمني والجغرافـي والاجتماعـي، متسـائلة مرة أخـرى "ما الفائدة مـن الرجوع إلى الخرافة وإلى التاريـخ وبين أيدينا واقع زاخـر طري؟ بل ما الفائـدة من الغرائبي الـذي سـقطت فيه بعـض الكتابـات في المغـرب؟ كنتُ سـعيدة وأنـا ألتقي بقراء أميركيـين أثنـوا على رواية 'عـام الفيل' وهـم يقولون لي 'كنا نحسـب أن المغرب هو مغـرب بول بوولـز'، يقصدون مغرب مـا قبـل 1912 الغرائبي الـذي كتب عنه بوولز مجمـل رواياته. وهـذا في الواقع هو ما حفزني على كتابة سـيرتي الذاتية 'رجوع إلى الطفولة'، وبعدها عملي الشبه أتوبيوغرافي 'الفصـل الأخير'. كنتُ أريد أن أقـدم المزيـد عن هذا المغـرب الجديد، وأسـاهم عبر الكتابة في صنع تحولاته. وأعتقـد أن هـذه هـي مهمـة الأدباء في المجتمع العربي اليوم".

اللوحة للفنانة سارة شمه